ملامح الأسلوب والأسلوبية في الدرس البلاغي العربي القديم

د. عثماني بولرباح. جامعة عمار ثليجي الأغواط

أ. عمر ربيع جامعة عمار ثليجي الأغواط

الملخص:

على الرغم مما شاع في الأوساط العلمية من أن البلاغة العربية القديمة عانت من الجمود والفتور، إلا أن هذا الحكم يحمل من التعميم والشمولية ما يجعله مطية الافتراء والكذب، وبالتالي فلا مناص من رد هذا الزعم والتأكيد على بطلانه، اللهم إلا في البدايات الأولى للبلاغة العربية، أما فترة النضج مع النقاد الرواد أمثال **الجاحظ و ابن قتيبة و عبد القاهر الجرجاني وابن رشيق** وغيرهم، فهذا الحكم فيه من التهكم والتعدي والكذب الصريح ما فيه، ولا أدل على صحت طرحنا من أن البلاغة العربية القديمة عند النقاد الرواد تتوزع على ملامح أسلوبية خصبة، تتجاوز في كثير من الأحيان ما جاءت به الأسلوبية الحديثة من طرح وأفكار وجزئيات، تستحق النظر فيها والتعامل معها بكل أمانة وعلمية، فما هذه الملامح الأسلوبية التي وظفتها وغذتها عقول هؤلاء النقاد وكيف تجلت في كتاباتهم النقدية؟

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الأسلوبية، الملامح الأسلوبية.

Abstract:

Despite the rumors in the scientific community that the ancient Arabic rhetoric suffered from stagnation and apathy, but this provision carries a generalization and comprehensiveness, which makes it a ride of slander and lying, and therefore it is inevitable to respond to this claim and emphasize its invalidity, except in the early beginnings of Arabic rhetoric, As for the period of maturity with pioneer critics such as Al-Jahez, IbnQutaiba, Abdul-Qahir Al-Jurjani, IbnRushiq, and others, this ruling is ridiculing, encroaching and outright lying. Often what c Has been formed by the modern stylistic of putting ideas and molecules, are worth considering and dealing with all honesty and scientific, what these stylistic features of which was used by the minds and fueled these critics and how manifested itself in the critical writings?

Keywords: rhetoric, stylistic, stylistic features.

1- تعريف البلاغة:

سُئِل ابن المقفع ت145 هـ ما البلاغة؟ قال :البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سَجعْاً وخُطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجازُ، هو البلاغة.[1]

إذا رجعنا إلى ما كتبه الرماني ت 386 ه حول إعجاز القرآن الكريم، حيث بين وجه إعجازه من خلال بلاغته وحسن نظمه، ويعرف البلاغة قائلا: **"وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة من اللفظ".** [2]

يذكر السكاكي تعريفا للبلاغة يقول فيه: (**البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها أعني البلاغة طرفان أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يتراءى له نراهما وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه ما به فيصدر الكتاب من أصوات الحيوانات ثم تأخذ في التزايد متصاعدة على أن تبلغ حد الإعجاز وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه .واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة،ومدرك الإعجاز عندي وهو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين).**[3]

2- تعريف الأسلوبية:

---

[1]- **الجاحظ أبو عثمان**: البيان والتبيين تح عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، مصر، طبعة 2010، ص 94.

[2]- **الرماني:** النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح:محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط6، ص76 .

[3]- **السكاكي أبو يعقوب**: مفتاح العلوم، تحقيق عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ص526.

يرى **مشال أريفي Michel arrivé** بأن الأسلوبية (**وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات**)ويقول **الهادي الجطلاوي** (**الأسلوبية موضوعها النظر في الإنتاج الأدبي وهو حدث لغوي لساني**).[4]

وعلم الأسلوب هو الذي يطلق عليه بالإنجليزية stylistic وبالفرنسية stylistique والأسلوب هو طريقة الكاتب في تشكيل المادة اللغوية، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعرف الاسلوبية على أنها منهج نقدي حديث، يتناول النصوص الأدبية بالدراسة على أساس تحليل الظواهر اللغوية والأسلوبية بشكل يكشف الظواهر الجمالية للنصوص، ويقيم أسلوب مبدعها محددا المميزات الأسلوبية التي يتميز بها عن غيره من المبدعين (**استكشاف العلاقات اللغوية القائمة في النص، والظواهر المميزة التي تشكل سمات خاصة فيه، ثم محاولة التعرف على العلاقات القائمة بينها وبين شخصية الكاتب، الذي يشكل مادته اللغوية وفق أحاسيسه ومشاعره التي تجعله يلح على أساليب معينة ويستخدم صيغا لغوية تشكل في مجملها ظواهر أسلوبية لها دلالتها في النص الأدبي**)[5]

3- ملامح الأسلوب والأسلوبية في الدرس البلاغي العربي القديم.

يقول أحد النقاد: (**نظرت في البلاغة العربية عند القدماء، فوجدت أن قضايا كثيرة عرضوا لها بأسماء مختلفة عن قواعد الأسلوبية الحديثة ونظرية السياق في العصر الحاضر**).[6]

ويقول آخر: (**علم الأسلوب ليس غريبا عن البيئة العربية ولا سيمافي القرنين الثالث والرابع الهجرين**)[7]

يعد تعرف البلاغة عند القدماء **"مطابقة الكلام لمقتضى الحال"** فعبارة **مقتضى الحال** لا تختلق كثيرا عن كلمة **الموقف** كما أن نظرة علم الأسلوب **للمواقف** ونظرة علم البلاغة **مقتضى الحال**فيه تطابق وتشابه إلى حد كبير، فكلاهما يفترضان أن هناك طريقا متعددة للتعبير عن المعنى، وأن القائل يختار أحد هذه الطرق في نظره الأكثر مناسبة للموقف، والهدف النهائي لعلم الأسلوب هو أن يقدم صورة شاملة لأنواع المفردات والتراكيب وما يختص به كل منها من دلالات، وهذا الملح نجده في علم البلاغة إذ يتناول طرقا معينة في

---

[4]- **بن حمو حكيمة**: البنيات الأسلوبية والدلالية في ديوان (لا شعر بعدك) لسليمان جوادي، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، أدب حديث، إشراف عبد الحفيظ بورديم، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية، 2011-2012، ص 11.

[5]- **نهيل فتحي أحمد كتانه:** دراسة أسلوبية في شعر أبي فراس الحمداني، مرجع سابق، ص 34-35.

[6]- **حسن منديل العكيلي:** جذور الأسلوبية في الموروث البلاغي، جامعة بغداد كلية التربية للبنات، شبكة النبأ المعلوماتية السبت 28 آذار 2009، ص 1.

[7]- **نفسه، ص 1.**

استعمال المفردات، كالاستعارة والمجاز المرسل والكناية، ويبحث في قيمة كل طريق من هذه الطرق. [8]

يعتبر كتاب **"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني**بحقبداية لتحرك صحيح وفعلي نحو نظرية لغوية في فهم النص الأدبي، ينتهي بها الأمر إلى نوع من التركيز حول دراسة الأسلوب في ذاته من خلال مفهوم النظم، وهو مفهوم اعتمد على التركيب اللغوي الذي يتصل باللفظ المنطوق والكلام النفسي.[9]

ولا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا بأن جل الكتب النقدية والبلاغية نحو **البيان والتبين للجاحظ، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني** وغيره احتفت بهذا المفهوم وأثارته في طياتها وإن تعددت المفاهيم التي سيق بها على، نحو: الصياغة، واللفظ، والبناء، والطريقة، والضرب، والنظم والبيان، والتعبير...الخ. [10]

مثلت البلاغة بحق في كثير من جوانبها العلاقة بين الأسلوب والمعنى وصلة هذا الأسلوب بما تتعرض له الجملة هو الذي يدخل تحت ما سمي بعلم المعاني الذي يختص بتتبع سمات تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ احترازا من الخطأ في مطابقة الكلام لمقتضى الحال.[11]

وقد تنبه البلاغيون واهتموا بامتداد هذا المقام إلى الصياغة وجزئياتها، بحيث يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام. وبهذا يرتبط المعنى بجزيئات التركيب ومواطن استعمالها، كما يرتبط بما بين هذه الجزئيات من علاقة خلقها هذا المقام، وعلى هذا الأساس يرتفع الكلام في باب الحسن والقبول، أو ينحط في ذلك لوروده على الاعتبارات غير المناسبة.[12]

كما أن مباحث علم البديع تتناول جوهر اللفظ وما يحمله من ألقاب بحسب تأليفه مع غيره من الألفاظ وتدور مباحثه في مستويين: أحدهما - المستوى السطحي الذي يختص بالناحية المحسوسة من النطق، التي تظهر من اللسان ثم تمر إلى السامع عبر أذنه كالجناس والسجع ، والآخر يتمثل في المستوى العميق أو ما يمكن تسميته بالنطق الفكري، وهو الذي يتصل

---

[8]- **شكري محمد عياد:** مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة مباركة عامة، مصر، ط2، 1992، ص 43.

[9]- **محمد عبد المطلب**: البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1، 1994، ص 260.

[10]-**جميل حمداوي**: اتجاهات الأسلوبية، مكتبة المثقف العربي، المغرب، ط1، 2015، ص 20.

[11]- **محمد عبد المطلب**: البلاغة والأسلوبية، المرجع السابق، ص 260-261.

[12]- **نفسه**، ص 262.

بالفصاحة المعنوية كالطباق والمقابلة، والتورية، ومن خلال تحرك علم البديع في هذين المستويين فقد ارتبط بالصياغة من حيث تشكيلها المعنوي.[13]

وقد حاول البلاغيون الإفادة من وظيفة التحسين في اللغة، من حيث هي إمكانات لغوية، لها تصور شكلي محدد في إبراز الناحية الجمالية، التي تتجاوز مجرد الإفهام والإفادة مع مراعاة المقتضى في علم المعاني[14]

ومن هؤلاء الذين نجد عندهم الملامح الأسلوبية واضحة جلية **ابن قتيبة** الذي تميز بربطه اللافت بين الأسلوب وطرق أداء المعنى على اعتبار أن لكل مقام مقالا، وهو يرجع تعدد الأساليب إلى اختلاف المواقف، وطبيعة الموضوع ومن ثم إلى مقدرة المتكلم، مما يبرز محاولته للربط بين الأسلوب والنص الأدبي كله[15]

أما **الباقلاني محمد بن الطيب** فقد عالج الأسلوب كونه (هو المظهر اللفظي للنص)، فقد كان تحليله للنصوص التي تناولها قائما على دراسة الجانب التنظيري والتركيبي، وما يعرض للكلام من أساليب التناسب والاتساق والتركيب، وهذا ما يتوافق مع الدراسة الأسلوبية الحديثة التي تعتمد الوحدة في النص، والملاءمة بين الألفاظ، ومعرفة الأسلوب الشخصي.[16]

ويرى **الباقلاني** أن التشابه بين شاعرين من حيث الطريقة لا يمكن أن يقع أبدا، لأن الأسلوب الشخص للكاتب يعكس صفاته الذاتية الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد، يقول الباقلاني(**فإنه لا يخفى على أحد أن يميز سبك أبي فراس من سبك ابن الرومي، أو سبكه من سبك البحتري، ولا يخفى على أحد أن يميز بين شعر جرير والأخطل، فلكل منه معروف، وطريق مألوف).**[17]

ومن النقاد العرب الذين احتوت جهودهم الملامح الأسلوبية في معالجتهم النقدية **ابن رشيق القيرواني** الذي ينحو بالأسلوب منحى الصياغة اللفظية وما يتوفر فيها من تلاؤم الأجزاء، وسهولة المخرج، وعذوبة النطق، وقرب الفهم يقول قال أبو عثمان الجاحظ (**أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء وسهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، وهو يجري على اللسان كما يجري الدهان، وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي**

---

[13]- **نفسه،** ص 266.

[14]- **نفسه،** ص 266.

[15]- **نهيل فتحي أحمد كتانه:** دراسة أسلوبية في شعر أبي فارس الحمداني، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف: خليل عودة، كلية النجاح الوطنية، العراق، ص43.

[16]- **نفسه،** ص 45.

[17]- **الباقلاني محمد بن الطيب:** اعجاز القرآن، تح أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1997، ص 17.

ذكره الجاحظ لذّ سماعه، وخف محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلى في فهم سامعه، فإذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجته المسامع فلم يستقر فيها منه شيء)[18]ما يظهر النظرة النقدية الحادة عند ابن رشيق وتفوقه وسبقه في مجال التنظير فقد أوجز مسائل أسلوبية برؤية نقدية تنم عن براعته وتفوقه.

وقد تفطن النقاد القدماء إلى ملمح الخصائص الفنية والملامح الدلالية، وأطلقوا عليها أسرارا بيانية، تنشط من خلال تدبر النص وطريقة نظمه، ومباني ألفاظه، مركزين على تفسير العدول في ضوء ذلك، ناهيك أن العدول من أهم ميادين الأسلوبية الحديثة "الانزياح".

وكوقفة أخيرة:

ما يثبت بجسارة تأبى الانحصار أن البلاغة العربية القديمة خاصة مع جيل النقاد الكبار كانت تحمل نظرة دقيقة فاحصة لمعالم النص لغويا ودلاليا وصوتيا، فهي خصبة في آرائها متطورة في أفكارها، ما يجعلنا نعيد النظر لكونها مناسبة لكل العصور وعبر المراحل لبناء صرح أدبي ضخم بعد استكناه خباياها ودقائقها الجزئية ما يحتم علينا القول بأن صرح النقد القديم صرح عملاق يحتاج لتظافر الجهود والأفكار بين الأوساط العلمية لاجتناء الفائدة والظفر بثروة نقدية تمكننا من الوصول إلى مصاف العالمية والكونية في مجال الدراسات اللغوية ولو بعد سبات عميق.

---

[18]-**ابن رشيق القيرواني:**العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح السيد محمد بدر الدين النعساني الحلي، مطبعة السعادة، مصر، ط1،

قائمة المراجع والمصادر:

- **الجاحظ أبو عثمان**:البيان والتبيين تح عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، مصر، طبعة 2010.

- **الرماني:** النكت في إعجاز القرآن، ضم نثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح:محمدخلف لله ومحمد زغلول
سلام، دار المعارف، القاهرة.

- **السكاكي أبو يعقوب**: مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

- **بن حمو حكيمة**: البنيات الأسلوبية والدلالية في ديوان (لا شعر بعدك) لسليمان جوادي، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، أدب حديث، إشراف عبد الحفيظ بورديم، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية، 2011-2012.

- **حسن منديل العكيلي:** جذور الأسلوبية في الموروث البلاغي، جامعة بغداد كلية التربية للبنات، شبكة النبأ المعلوماتية السبت 28 آذار 2009.

- **شكري محمد عياد:** مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة مباركة عامة، مصر، ط2، 1992.

- **محمد عبد المطلب**: البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1، 1994.

-**جميل حمداوي**: اتجاهات الأسلوبية، مكتبة المثقف العربي، المغرب، ط1، 2015.

- **نهيل فتحي أحمد كتانه:** دراسة أسلوبية في شعر أبي فارس الحمداني، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف: خليل عودة، كلية النجاح الوطنية، العراق.

- **الباقلاني محمد بن الطيب:** اعجاز القرآن، تح أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1997.

-**ابن رشيق القيرواني:**العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح السيد محمد بدر الدين النعساني الحلي، مطبعة السعادة، مصر، ط1،